التعريف والنقد

حياة شيخ الاسلام ابن تيمية [1]

تأليف الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار — في (٢٢٣) صفحة من القطع الوسط
ومن منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر دمشق ١٩٦١

كلنا يعلم أن عصر الامام ابن تيمية كان عصر اضطراب سياسي ، وقد كثر في أيامه دعاة التدين والصلاح ، وكثر المقربون من الملوك والحكام ، كما كثر المنافقون وأهل الرياء ، وقلّ أهل الصدق والاصلاح ...

وكلنا يعلم ما كان من انحراف سواد العامة عن فهم روح الاسلام الصحيح ومنهاجه القويم ، وما كان لهذا الانحراف من تأثير في اخلاق المجتمع وتصرفات ذوي الجاه والنفوذ والمقربين .

وكلنا يعلم ما في عصرنا الحاضر عصر المادة والذرة والصواريخ من ابتعاد عن الاشتغال في أمور الدين ، وأمور الروح وما بعد الطبيعة ، وما هم عليه ابناء الحاضر من علم ، وبحث وشك ، وحيرة ، وسعي لمعرفة الحقيقة .

ولهذه الأسباب نعترف ويعترف من اطلع على التاريخ الاسلامي وما كان لأئمة الاسلام وعلمائه من فضل وجهد في الدفاع عن الحق وعن المنهاج الحق ، وقد أحسن المؤلف كل الاحسان بسرد حياة ابن تيمية علامة عصره ، وبيان ماجرى له في أيام جهاده من مقاومة واضطهاد ، وشرحه لإرشاده القويم الداعي لاتباع هدي القرآن وسنة الرسول ، ودفاعه عن العقيدة السلفية ، وهو المحدث السلفي

---

(١) كتب العالم الجليل عضو المجمع العلمي العربي بدمشق الدكتور عبد الرحمن الكيالي كتاباً خاصاً الى الأستاذ محمد بهجة البيطار عضو المجمع بمناسبة إصداره مؤلفه القيم عن « حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » وقد رأت لجنة المجلة اقتطاف هذا البحث لما فيه من آراء قيمة وأفكار علمية مفيدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاصولي ، واثباته ان الدين الاسلامي لا يخرج في عقائده عن مدركات العقل السليم ، ولا في أحكامه الدنيوية عن صالح العباد وسعادتهم في الدارين .

وان هذا الامام ومن أخذ عنهم من الأئمة والصحابة والتابعين وروى ، ورثوا العقيدة الدينية كما أبانها وفسرها القرآن ، لان آياته تفسر بعضها بعضا ، وكما أبانها وفسرها الحديث المتواتر الصحيح لانه عماد السنة وسياج الشريعة .

أما سطور الكتاب التي كشفت عما لاقاه ابن تيمية في حياته وأثناء تدريسه من سجن واتهام وحسد وكيد ، ووصفت كيف ثبت وتحمل ، وصبر بايمان لا يتزعزع ، ودون أن تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا شك ، ترشد القارىء إلى المثل الأعلى الذي تمثل في شخصية هذا المسلم الفذ والمفكر العبقري ، وفي تعاليمه وعلمه وشجاعته ، وتبين لنا ما هي القضايا التي أثارها المغرضون حول تعاليمه وأقواله واتهمه الجاهلون بها في عقيدته وايمانه ، ثم دافع عنها بشجاعة وصراحة ، كقضية الصفات والاتحاد ، ومسألة الحلف والطلاق ، ومسألة شد الرحال إلى قبور الانبياء والصالحين .

ومما يحمد عليه المؤلف نقده العلمي الذي أبطل ما ادعاه ابن بطوطة في رحلته وهو في دمشق من قوله بأن ابن تيمية كان يقول بالتجسيم مع أن هذا يخالف ما أوضحه الامام في كتبه ، ويحمد أيضاً على المحاضرات التي دفع بها الفرية التي ألحقها الخصوم به ، اذ كان الاتهام والافتراء والطعن في دين المؤمن ديدن الحاسدين المنافقين ، ذهب ضحيتها الامام ومثله كثير من رجال العلم والفكر والفلسفة والتصوف في مختلف العصور وفي عهد الانحطاط والجمود الفكري بين المسلمين .

ويحمد أيضاً على دفاعه بايراد النصوص التي ذكرها العلماء لبيان حقيقة أقوال الامام وقصده منها . وعلى بحثه الدقيق الذي كشف القناع وأزال آثار الشك والابهام التي أثارها الخصوم وخاصة فيما قصده الشارع من الطلاق وهو أكره الحلال عند الله ، ومقارنته اياه بما يقصده الغربيون من طلاقهم وما جاء في الاسلام من شروط الوقوع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعلاوة على هذا وزيادة بالفائدة فقد ذكر المؤلف ما جاء في كتب الامام عن حقيقة التوسل ولمن يجب التوسل وما هو المطلوب في الدعاء ومن يحرم له التوسُّلُ وكيف تتم وحدة الاديان حسب النصوص الواردة في القرآن والكتب السماوية الاخرى . واختصاره ما ورد في كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) عن معنى (الأب والابن وروح القدس) كما يفهم من التوراة والانجيل ، وبين ما اتفقت عليه الكتب المقدسة من الاصول العامة وهي مما يُزيل الاشكال ، وكان ضروريا للاقناع .

وفي كتابه عن (موضوع العقل عند ابن تيمية) أشار المؤلف إلى الكتب التي ألفها في هذا الشأن وقال أن اهمها كتابه (موافقة المعقول لصحيح المنقول) ومداره الرد على الفلاسفة والمتكلمين ، ونقض أقوالهم وقواعدهم التي لا يؤيدها العقل السليم ولا الفطرة السليمة ، فبرهن على أهميه ما تناوله كتاب المؤلف من المباحث التي يجب أن يطلع عليها الباحثون ليعلموا ما أسداه ابن تيمية للمسلمين من آراء وأفكار تنير العقول لفهم قواعد الشرع ومقاصد الاسلام ، وتقرب ما بين العقل والنقل ، وتنير الطريق المؤدي لمعرفة الحق ، وتثبت أن الدليلين القطعيين لا يتعارضان أصلا ، وان كان أحدهما عقليا والثاني سمعيا ، أو كانا سمعيين أو عقليين ، وان من خالف صحيح المنقول فقد خالف صريح المعقول .

وفي هذا الصدد وجدت للمؤلف مباحث أخرى هامة كالبحث عن (ما المراد بالعلم ، وحدوث العالم) وهي مباحث تدخل نطاق الفلسفة والبحث (عن قيام الصفات بالموصوفات والموجود بنفسه والموجود بغيره ، وان الذات مستلزمة للصفات) وهي مسائل كلامية تدخل في نطاق العقائد الدينية . والبحث عن (موافقة المعقولات للمنقولات ، وان المَنْقول [1] موافق لما جاء به الرسول ، واثبات الصانع

(١) لعله : وان المعقول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واحداثه للمحدثات لا يمكن الا باثبات صفاته وفعاله ، وعن تكليم الله لعباده وعن الحوادث المتجددات) وهي قضايا متممة للمباحث العقائدية التي تدخل في نطاق العقائد الدينية . والبحث عما جاء في مدعيات (الدهرية ، ــ والفلاسفة والجبرية والقدرية والجهمية) ورده عليها وهي مباحث جدلية تدخل في نطاق الكلام الجدلي الطائفي الذي خاضت فيه الفرق في المسائل اللاهوتية ، وشغلتها الاختلافات النظرية ، والقياسات الكلامية ، دون جدوى عن البحث العلمي لمعرفة الوجود وما هو عليه من سنن وقوانين ، وما فيه من كائنات واجرام وعوالم ، ومظاهر طبيعية ، وحياتية وروحية لا تصدر الا عن واجب الوجود ، ورب حكيم ، لا تدركه العقول ولا تحيط بقدرته الافهام ، كما شغلتها عن التدبر بما قرره القرآن بحق الذات الإلهية ، وبحق الموجودات ، وواجب الانسان نحو خالقه كما يوحي الايمان السليم ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها ، فتاهوا وضلوا وما كانوا من المهتدين .

ما ألهمتني إياه مطالعة الكتاب

أما وقد عرضت خلاصة ما ورد في الكتاب فاني سأذكر ما ألهمتني إياه مطالعته فاعرضه في سؤالين الأول : ما هو الأهم للانسان العاقل قبل كل شيء ، هل معرفته وجود الإله أم معرفة ذاته وصفاته ؟ ، والثاني هل الفكرة الإلهية أصيلة في الانسان و كيف كانت ثم تطورت ؟

ولقد ذكرت هذين السؤالين اذ في الجواب عليهما ما يغني عن البحث في القضايا التي هي مصدر الخلافات ومبعث الشقاق والنظريات .

أجل يجب البحث أولا عن وجود الله لانه هو الحقيقة التي تكمن في الموجودات ، ولأن عقلنا الذي هو وسيلتنا لمعرفة الحقيقة سيظل باحثاً عنها وعن الموجودات حسب طاقته ومقاييسه مع العلم أن الحقيقة عندما تخرج عن نطاق العقل والعلم تغدو فلسفة لا معنى لها ولكن ما هي الحقيقة وهل يمكن معرفتها ؟ إن الحقيقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بنظر العلم هي ما وافق الاختبار ، وبنظر الدين هي (الله) ، وبنظر الفلسفة هي مطابقة الفكر للواقع . ولماذا ؟ لأن مفهومنا لها مهما يكن يختلف بالنسبة للعقل والعلم ، وبالنسبة للعقيدة والطبيعة ، مما يجعل للحقيقة حياة تتحول ، بمعنى أن ما نعلمه عنها أمس واليوم قد يتبدل غدا لا تبعاً لوجودها وإنما تبعاً لوجهات نظرنا اليها ، وتبعا لتطور أفكارنا ، ومقدار ما يصل إليه علمنا ، ومع هذا يبقى العقل ساعياً وراءها ، طالباً الحصول عليها وتائهاً في بيداء مجاهلها ، وكلما ازداد معرفة بها ازداد قرباً منها ، ولكن دون الاحاطة بها صعوبات لا تعد ، وموانع لا تحصى ، وعجز لا يقدر .

اذن لا بد من القول فيم البحث عن الحقيقة ما دام الوصول اليها فوق طاقة العقل ؟

اننا نبحث عنها لانها من طبيعة العقل الذي لولاه لما عرفنا الوجود وما في الوجود ، ولجهلنا عالمنا الخارجي المؤثر في حسنا ووعينا وشعورنا ، وادراكاتنا .

وإذا كان العقل محدوداً مهما اتسعت آفاقه وتعالت مقدرته فهل يمكن للمحدود أن يعرف اللامحدود ؟ وهل يمكن للمتناهي أن يحيط باللا متناهي ؟

كيف يمكن ادراك حقيقة الله ، وحقيقته لا تحدّ ولا نهاية لها ؟ وكيف يمكن معرفة ذاته وهو في حقيقته غير ما هو في تصورنا ؟ وعليه مهما تكن معرفتنا فلا تزيد عن معرفة النملة وادراكها عندما تقف أمام الجبل العظيم الشاهق وتحاول معرفته ومعرفة ما وراءه وهيهات ان يتم لها ما تريد .

والله فوق كل ذي علم عليم ، ونحن ما أوتينا من العلم الا القليل ، ونتيجة لهذا المنطق السليم نقول :

من المسلم به ان الشيء الذي لا يمكن ادراكه بوسائلنا العلمية ، لا يمكن تصوره بعقلنا الواقعي ، ولا بوافضنا المنطقي . لان الادراك تصور استنتاجي من المحسوس الموجود الى الممكن الوجود إلى واجب الوجود ، ولو كان ادراك غير الموجود لا في الحس ولا في العقل ممكنا لادركنا العدم ، والمستحيل ، وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اسماء نظمها عقلنا بالنسبة لغيرها من المعقولات لا لحقيقتها ، ولا ندرك كنا الموجود قبل أن يوجد والكائن قبل أن يكون مخالفين بذلك بداهة العقل واحكام المنطق .

ولما كانت ملكات العقل بامكانياته التجريبية والذهنية قد لا توصلنا الى الموجودات الخفية فاننا فرضنا صورها وخواصها وتخيلنا صفاتها وامكان وجودها ، وحاولنا ادراكها بالمدلولات الحسية ووضعنا لها الاسماء التي نستطيع التكلم بها والتحدث عنها كأنها واقعية ، كالجنة وما فيها من صور وقصور وأنهر وأشجار ونعيم ، وجهنم وما فيها من نار وزبانية وعذاب وآلام ، وكالصراط وما له من حد وخطر ، والبعث وما سيحدث فيه ، وكذا القول بالعقول المجردة والارواح المجردة والمثل المجردة ، والجواهر المجردة ، رغم أننا لا نعلم حقيقتها ولكنها من صنع عقل الانسان ، قال بها المتقدمون ، وقال بها أفلاطون ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد وغيرهم ، وكان قولهم فرضيا تولد عن الخيال ، ولا يمكن أن يعرف أحد ما سنكون عليه بعد الموت وما سنلقاه ، الا أننا كمؤمنين نسلم بما وعد الله به عباده ولن يخلف الله وعده .

اذا صدق واقعنا بما علمناه وفرضناه ، فما أعجزنا عن إدراك الحقيقة الالهية ، ونحن لا زلنا عاجزين عن إدراك ماهية الحياة وماهية الروح ، ثم لماذا لا نتبع هدي القرآن ، فننظر إلى صنع الله وكماله وجماله وما أبدع في خلقه وكائناته ثم في أنفسنا ؟ (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وندرك حقيقة امكاننا .

ولا شك ان من الحكمة أن نقر بوجود واجب الوجود ، وبحقيقة الوجود ، ونترك البحث عن سر الذات وما وصفناه بها من الصفات التي سبب البحث فيها هذه الاختلافات وهذه النظريات الكلامية الحائرة ، ثم نبحث في مظاهر الوجود التي تنبع من صميم الموجودات ، ونشعر بها ، ونلمس أثرها وما فيها من نظام محكم ، وابداع شامل ، وجمال كامل ، ولا تعليل لشعورنا بها الا الإقرار بانها تمثل تلك الحقيقة المطلقة التي لولاها لما هام العقل باحثا عنها ، وعن آلائها منذ انبثق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فجر العقل وسيبقى هائماً باحثاً ما دامت الحياة ، وكلما ازداد بحثاً ازداد يقينا ، واليقين اعتقاد النفس بأنها حازت على الحقيقة التي نجد فيها النفع لنظام أفكارنا ونجد فيها خاصية التطور للفكرة الآلهية ، وتحول هذه الفكرة من تأليه قوى الطبيعة الجبارة ، وقوى النباتات والحيوانات ، الى تأليه قوى الانسان وتمثيلها في الجمال الجسماني وفي المقدرة على الخير والشر ، والحب ، والحرب ، والسلم ، والخصب إلى تأليه القوى المجردة وتوحيدها واعتبارها إلهاً واحداً هو علة العلل والمحرك الأول ، ووصفه بالصفات الذاتية والثبوتية حتى لا يبقى الفكر حائراً ولا ضالاً معذبا مع أن الجواب القاطع كائن فيه ومنه وإليه .

ويتبع كل هذا مسألة الروح وهل هي شيء مفارق للجسم كما يقول ابن سينا أم هي فعالية الجسم ما دام حيا ؟ اننا إذا نظرنا إليها من ناحية المادة وما أودع في الجسم من خواص وما هي عليه المادة من تحول وحركة وتطور فالجواب يدخل في نطاق العلم الطبيعي ومنطقه التجريبي ونظرياته الحياتية وفرضياته العلمية ، وإذا نظرنا إليها من ناحية ما وراء الطبيعة وفرضناها جوهراً مفارقاً له عالمه ، وفرضنا أن العقل مثلها جوهر مفارق فالأمر يدخل في نطاق الفلسفة الروحية التي يطول البحث فيها وبيان ما لها وعليها . ولذا اكتفي بما أوردته جواباً عن السؤالين ومفهوم كلمة الحقيقة وأين يجب أن يقف حديثنا عن (ذات الله) واجب الوجود ، واختم القول بالاقرار أنه ليس من حدى الاطالة خوف أن أكون كناقل التمر إلى هجر ، ولكن أبحاث الاستاذ المؤلف أثارت في نفسي لذة ابداء الرأي في المسألة التي اعتقدها هي الأساس وما بعدها فتابع لها ، والمرء مهما بحث يجب أن يطمئن قلبه ويزيل شكه وحيرته ويثق بعقيدته ليصح ايمانه كما صح ايمان ابراهيم عندما سأل ربه أن يراه فأجابه :(ألم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) .

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net